الدرس السابع

تفسير سورة القلم [٥ : ١٦]

قال الله تعالى: {فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ} [القلم:٥]، جملة مخيفة فيها تهديد ووعيد لأولئك المكذبين الذين وصموا النبي ﷺ بالجنون، أي سيتكشف الحال ويتبين من هو المفتون حقا، فإنهم وصفوا النبي ﷺ بالفتنة، وأنه يفتن الرجل عن أهله وقبيلته، والزوج عن زوجته، والزوجة عن زوجها، وغير ذلك، وقيل: أن معنى مفتون أي مجنون، كما تقدم، فالمقصود بالفتنة هنا هو وصف السوء، وللفتنة معاني متعددة.

وقد أبصروا وأبصر النبي ﷺ وأبصرنا، أن هؤلاء المشركين الضالين المكذبين هم المفتونين، كما قال: {ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ} [الذاريات:١٤]، فذاقوا فتنتهم وذاقوا العذاب من جراء ذلك.

{بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ} [القلم:٦] : الباء هنا بمعنى في، أنتم أم هو، أو بأي الفريقين في الفتنة، والمعنى متقارب.

{إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [القلم:٧]، إن ربك: جملة تقريرية ثقيلة رصينة تدل على كمال علم الله تعالى بخلقه، وضمير الفصل هنا للتأكيد، فلستم أنتم الذين تمنحون شهادات حسن السير والسلوك والتزكيات، ذاك إلى الله، {بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ } [النساء: ٤٩]. وسبيله دينه وشرعته، {قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ} [يوسف:١٠٨]، {وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ} [الأنعام:١٥٣]، {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيم} [الفاتحة:٦]، فالله أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ الذين اهتدوا إلى سبيله.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

وفي هذه الآية ما يدل على إثبات القدر؛ لأن علم الله السابق بمن يضل عن سبيله ومن يهتدي إليه دليل على أنه قد قدر المقادير على العباد، " إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ، ثُمَّ أَخَذَ الْخَلْقَ مِنْ ظَهْرِهِ، وَقَالَ: هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي، وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ وَلَا أُبَالِي "[1]، يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فلا ريب أن ربنا ﷻ قد قدر المقادير على العباد لكنه أخفى ذلك عنهم وأظهر لهم شرعه وقال: اعملوا، فمن يضل فإنه يضل عن سبق إصرار ومحض اختيار، ومن يهتدي كذلك.

لهذا أسند الله الأفعال إلى المكلفين فقال: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [الليل:٥-١٠]، فهذه الجملة تدل على إثبات القدر وتدل أيضًا على إثبات المشيئة للعباد من حيث سلوك طريق الهدى وسلوك طريق الضلالة.

وهذا الذي تجتمع به الأدلة فنثبت للعبد مشيئة وفعلا واختيارا، لكنها تابعة لمشيئة الله ﷻ، لأن الله تعالى يقول: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ *وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [التكوير:٢٨-٢٩]، فليس للعبد مشيئة منفصلة عن المشيئة الكونية التي قدرها الله وقضاها في الأزل، لكن إثبات المشيئة السابقة لا يمنع من إثبات مشيئة حقيقية وفعل حقيقي للعبد، وهذا من مباحث القدر، ولكن في هذه الجملة إلماحة إلى هذا المعنى العميق.

{فَلاَ تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ} [القلم:٨]، فإن في طاعتهم الهلاك، والمراد بالمكذبين المكذبين بالرسل وبالقرآن وبالبعث، {وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} [القلم:٨-٩] ودوا: أي تمنوا

[1] أخرجه أحمد- (١٧٦٦٠).

ورغبوا، لو تدهن، المراد بالإدهان المصانعة والنفاق والرياء والتقية. يعني أن لو طاوعتهم لجروك إلى أحوال ومقامات تزل فيها وتنسلخ عما أمرك الله ﷻ به.

وفي هذا إشارة إلى عرض عرضوه على النبي ﷺ فعن ابن عباس: أن قريشا وعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطوه مالا فيكون أغنى رجل بمكة، ويزّوجوه ما أراد من النساء، ويطئوا عقبه، فقالوا له: هذا لك عندنا يا محمد، وكفّ عن شتم آلهتنا، فلا تذكرها بسوء، فإن لم تفعل، فإنا نعرض عليك خصلة واحدة، فهي لك ولنا فيها صلاح. قال: "ما هي؟ " قالوا: تعبد آلهتنا سنة: اللات والعزي، ونعبد إلهك سنة، قال: "حتى أَنْظُرَ ما يأْتي مِنْ عِنْدِ رَبّي"، فأنزل الله: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} [الكافرون: ١] [1] {وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُون} فلا مانع عندهم من التنازل لأن أمر الاعتقاد بالنسبة لهم قضية قابلة للمتاجرة، أما أنت فحاشاك أن يقع ذلك منك، {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ *وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} [الكافرون:١-٦].

فلا يجوز المصانعة والمسايرة والمجاملة في أصل الدين، أما ما سوى ذلك من أمور الحياة فقد يحتاج إليها الإنسان أحيانا؛ إما دفعا لشر أو جلبًا لمصلحة، والآية تحمل النهي والتحذير، أي لا تفعل هذه الملاينة والمداهنة والتملق والمصانعة التي هي استزلال عن أصل الدين.

{وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ * هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ} [القلم:١٠-١٣]، هذه السلسلة من ألقاب السوء التي وصم الله ﷻ بها عدو نبيه ﷺ، ويقال إن هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة، سيد من سادات قريش، ويقال

[1] ذكره الطبري في تفسيره- (٢٤/ ٦٦٢).

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

أنها نزلت في الأخنس بن شريق، وهي تنطبق على عامة أعداء الرسل الذين انتصبوا لعداوتهم.

ومع أنه قال قبل ذلك: فلا تطع المكذبين، أعاده لمزيد التأكيد والتحذير من هذا الصنف خاصة، فقال: {وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ} أي كثير الحلف، أهون ما عليه أن يشقق الأيمان بالدعاوى العريضة كما هو حال المنافقين، فإنه إذا أكثر الحلف أوهم السذج بأنه صادق في دعواه وهو مجرد حلاف، {مَهِينٍ} أي ذميم وسامج وحقير.

ومن امتهن الكذب هانت عليه نفسه؛ لأن الذي يحلف ويكذب لا يحترم نفسه، لو كان يحترم نفسه ما حط منها ووضعها في منزلة الكذب وإظهار خلاف ما يبطن، ولهذا وصفه الله بأنه مهين حقير ذليل وضيع.

{هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيم} [القلم:١٠-١١] أي كثير الهمز وهو الطعن في الآخرين وذكر معايبهم كقوله في سورة الهمزة: {وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ} [الهمزة:١]، فيحمل الهمز على القول واللمز على الإشارة أو العكس ويمكن أن يقع هذا حتى بالعين بأن يغمز، ويمكن أن يقع بالقول بأن يطلق كلمة نبز. {بِنَمِيم} يعني أنه يسعى بالوقيعة بين الناس وإيغار صدور بعضهم تجاه بعض، هذه صفات أعداء الرسل. ولهذا قال في الحديث: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ»[1]، وهو النمام، عكس حال المؤمنين الذين قال الله عنهم: {إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ} [النساء:١١٤].

{مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيم} [القلم:١٢]، يعني فيه بخل وشح، يمنع الخير من الوصول إلى مبتغيه، كما قال تعالى: {وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُون} [الماعون:٧]، أو المراد بالخير الإسلام، يعني أنه يصد عن دين الإسلام، إذ الإسلام هو الخير كله.

[1] أخرجه البخاري- (٦٠٥٦)، ومسلم- (١٠٥)، متفق عليه.

{مُعْتَدٍ أَثِيمٍ} معتد على الآخرين، أثيم أي في نفسه، فهو صاحب عدوان، لا يسلم منه أحد، إما من لسانه أو فعاله، (الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ)[1]، أما هذا فإنه معتد يعتدي على الناس في أشخاصهم وأموالهم وأعراضهم.

{أَثِيمٍ} أي منغمس في الإثم فيقع في الموبقات والمحرمات لا يبالي، {عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ} [القلم:١٣]، العتل: هو الغليظ الجافي القاسي، العتل مأخوذ من القسوة والغلظة، فبعض النفوس الخبيثة تكون على هذا الحال، ولذا قال النبي ﷺ: « إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ كُلَّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ صَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ ، جِيفَةٍ بِاللَّيْلِ ، حِمَارٍ بِالنَّهَارِ ، عَالِمٍ بِالدُّنْيَا ، جَاهِلٍ بِالْآخِرَةِ »[2].

{زَنِيمٍ} هذا وصف فيه سخرية بهذا الكافر، كما توجد الزنمة وهي اللحمة المتدلية في عنق الشاة أو في عنق الماعز تسمى زنمة، فكأنها شهرة له بها يعرف، لا يعرف إلا بهذا، فإذا ذكر السوء والفحش والغلظة والقسوة قيل فلان.

وقيل: معنى زنيم أنه لصيق بالقوم وليس منهم، فإن هذا الرجل سواء كان الوليد بن المغيرة أو الأخنس بن شريك أو الأسود بن يغوث على ما قيل فيه قيل أنه كان لصيقا بقريش وأن أباه لم يلحقه به إلا بعد أن بلغ ثمان عشرة سنة، فهو لصيق بهم وليس منهم.

هذا وصف هؤلاء الممسوخين، هؤلاء المحجوبين عن نور النبوة وهدى الله، ينعكس على أخلاقهم وينعكس على سلوكهم.

فهذه الآيات ذم لهم وانتصار للنبي ﷺ، وكما أنك يا محمد على خلق عظيم فتلك أخلاق أعدائك وخصومك، هذه الحزمة القبيحة من ألقاب السوء: حلاف، مهين، هماز،

[1] أخرجه البخاري- (١٠)، ومسلم- (٤٠)، متفق عليه.
[2] أخرجه البيهقي في السنن الكبرى بهذا اللفظ- (٢٠٨٠٤)، وأخرجه أحمد بمعنى متقارب- (١٢٤٧٦)، وإسناده على شرط البخاري ورجاله رجال الشيخين، وأخرجه الحاكم بمعناه- (٢٠٢)، وقال الحاكم والذهبي: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

مشاء بنميم، مناع للخير، عتل، زنيم، يستحقها أولئك الذين ناصبوا النبي ﷺ العداء وصاروا يسمونه بألقاب السوء.

يقول الله ﷻ: {أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ} [القلم:١٤] فيها قراءات، (أن)، بفتح همزة مفردة و(أإن)، بتحقيق الهمزتين، وفي قراءة بتسهيل الثانية، والقراءة المشهورة عندنا بهمزة مفردة والمعنى: ألأن كان ذا مال وبنين فكان سبب هذا الإثم والتكذيب أنه كان ذا مال وبنين، ظن المغرور أن وفرة المال وكثرة البنين مدعاة للاستطالة والتفاخر والتباهي، ولهذا تهدده في سورة المدثر كما سيأتي: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا} [المدثر:١١-١٣].

وهذا يرجح أن المراد هو الوليد بن المغيرة، لأنه المقصود في سورة المدثر، وقال في سورة المدثر: {ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ} [المدثر:٢٢-٢٥] وهنا قال: {إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ} [القلم:١٤-١٥].

يتلى عليه القرآن الذي تخضع له الرقاب وتذعن له النفوس السوية المستقيمة فيشمخ بأنفه ويستنكف ويشيح بوجهه ويقول: هذه أساطير الأولين، هذه قصص وسوالف وروايات مما يتحدث به الناس. وقد جاء أحدهم مرة ورأى الناس يستمعون إلى النبي ﷺ والقرآن فقال: هلمو إلي أحدثكم بأحاديث كسرى واسفنديار وهرقل، ظن أن المسألة مجرد حكايات ولم يدرك المعنى العظيم الذي جاء به القرآن العظيم، فظن أن هذا من جنس أساطير الأولين.

وفي هذا كبر ما بعده كبر؛ لأن الكبر: بطر الحق وازدراء الناس وقد جمع بينهما، فبطر الحق يعني جحده، يعلم أن هذا حق وينكره، كما قال ربنا ﷻ: {وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ

عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُون} [الأنعام:٢٦] يأتون في ظلمة الليل يستمعون إلى قراءة النبي ﷺ ويتعجبون، ثم يتواصون ألا يعودوا حتى لا يغتر الناس بذلك، فيفقدون رياستهم كما قال أبو جهل لما ووجه بذلك قال: نحن وبنو هاشم كفرسي رهان، أطعموا فأطعمنا، وسقوا فسقينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي، فمن أين لنا ذلك؟[1]. وأما ازدراء الخلق فقد ذموا النبي ﷺ وقالوا مجنون مفتري كذاب، الخ.

ثم ختم الله تعالى هذه الآيات بهذا الوعيد المخيف: {سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُوم} [القلم:١٦] الوسم وضع علامة لا تفارق صاحبها، كما يقول جرير:

لما وضعت على الفرزدق ميسمي وسما البعيث جدعت أنف

فالميسم: هو الوسم الذي يجعل على الشخص لا يفارقه، وأراد بالخرطوم الأنف، لأنه أبين ما في الوجه، فكأنه وسمه بعلامة لا تفارقه، وذلك حينما يعذبه الله تعالى ويلفح وجهه النار، أو حينما خطمه السيف يوم بدر، فضرب وجهه وأنفه. فوقع له ذلك في الدنيا قبل الآخرة.

الفوائد المستفادة:

الفائدة الأولى: إعجاز القرآن للفصحاء والبلغاء أن يأتوا بمثله، مع تمكنهم من لغته وحرفه.

الفائدة الثانية: عظيم شأن القلم والكتابة والمكتوب، والله لا يقسم إلا بمعظم.

(1) تفسير ابن كثير- (٣/ ٢٥٢).

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

الفائدة الثالثة: أهمية الحفظ في السطور كما في الصدور، ولذلك عظم الله أمر الكتابة وقال في أطول آية في القرآن: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ} [البقرة:٢٨٢].

الفائدة الرابعة: براءة النبي ﷺ من شعب الجنون كافة.

الفائدة الخامسة: امتنان الله تعالى على نبيه ﷺ بنعمة النبوة والحكمة والعصمة، وامتنانه عليه بموفور العقل وسداد الرأي والقول والعمل.

الفائدة السابعة: موعود الله لنبيه ﷺ بجزيل الأجر ودوامه.

الفائدة الثامنة: تزكية الله لأخلاق نبيه ﷺ وشمائله الطاهرة.

الفائدة التاسعة: أهمية الخلق وعظيم أثره وجزيل ثوابه، فينبغي للإنسان أن يهذب أخلاقه وأن يدعو ربه كما كان النبي ﷺ يدعو ويقول: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ وَأَحْسَنِ الْأَعْمَالِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ وَقِنِي سِيِّئَ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ لَا يَقِي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ [1]».

الفائدة العاشرة: أن كمال الخُلُق في امتثال هدى الله في القرآن، فالدين كله خلق.

الفائدة الحادية عشرة: وعيد الله للمخالفين للحق وتحققه.

الثانية عشرة: تلبس الكفار بالفتنة.

الفائدة الثالثة عشرة: كمال علم الله بعباده وسبق قدره فيهم.

التحذير من موافقة أهل الزيغ والتكذيب، والتحذير من طرائق المخالفين للرسل وأنها ملتوية ومهما الإدهان، والتحذير من التنازل عن الحق تحت أي دعوى كالمصلحة.

[1] أخرجه النسائي- (٨٩٦)، والدارقطني في سننه- (١١٣٩)، وصححه الألباني- (في السلسلة الصحيحة- ٣٢٥٥).

الفائدة السابعة عشرة: استعداد الكفار للادّهان والنفاق والمصانعة والتقية ورغبتهم في ذلك.

الثامنة عشرة: التحذير الخاص من المكذب الحلاف بالباطل.

التاسعة عشرة: دناءة المخالف للنبي ﷺ واتصافه بصفات السوء.

الفائدة العشرون: الحذر من مشابهة أخلاق الكفار الذميمة

الفائدة الحادية والعشرون: ذم الهمز والنميمة والشح والعدوان والإثم والغلظة.

الفائدة الثانية والعشرون: وصم الكافر المنتصب لعداوة النبي ﷺ بالدخيل اللصيق.

الثالثة والعشرون: اغترار الكافر بأعراض الدنيا من المال والبنين.

الرابعة والعشرون: كِبْر الكافر وغمطه للحق.

الفائدة الخامسة والعشرون: أن الجزاء من جنس العمل، قوبل بالإهانة البليغة التي لا تنفك عنه ولا تفارقه.